

خطاب الهامش: فرانز فانون نموذجا

أ. علوشن جميلة

جامعة تيزي وزو-الجزائر

تاريخ الإرسال: 17-05-2018 تاريخ القبول: 27-07-2018 تاريخ النشر: 01-02-2019

الملخص باللغة العربية: تحتاج كل هوية إلى خلق خطابها الخاص لتحقيق تميزها عن باقي الهويات لذا تعمل على توظيف كل رمز إيجابي وطرح السلبي، ويمكن أن تساهم عوامل عديدة في تحديد موضع تلك الهوية إما في المركز أو في الهامش هذا ما قامت به الأوضاع الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية عند الغرب لينتج عن ذلك "الأنا المركزية" مقابل "الأنا الهامشية" يمثلها العالم الثالث، كما تدخل عوامل أخرى في تحديد الهوية مثل العامل العرقي المرتكز على لون البشرة الذي تأسس عليه خطاب "فرانز فانون" متفقا آثار مؤسس الحركة الزنجية "سيزر" لكن سرعان ما تتغيرت وجهة هذا الخطاب بسبب دافع الإنسانية مركزا على قيم المساواة، والحب، والحرية التي أصبحت فيما بعد إيديولوجية عصرنا الحاضر، سيختفي الدافع الإنساني لخطاب "فانون" خاصة بعد احتكاكه بالثورة الجزائرية، سنحاول أن نكتشف في بحثنا النسق المضمّن الذي يتخفى وراء هذه التغيرات لنعرف إن كان هذا الخطاب خطابا براغماتيا بالنسبة لمؤسسه.

Summary: Each identity needs to create its own discourse to verify its distinctiveness from the other identities. Therefore, it employs every positive symbol and negative symbol. Several factors can contribute to determining the position of identity either in the center or in the margin as the economic, social, and political factor in the West, resulting in the "central ego" versus the "marginal ego" represented by the Third World, and other factors of identification, such as the ethnic factor based on the color of the skin. On which the speech of Franz Fanon adopted the effects of the founder of the black movement, "Amy Cesar," but the direction of this discourse quickly changed because of the motivation of humanity, focusing on the values of equality, love and freedom that later became the ideology of our time. The humanitarian motive disappears after its contact with the Algerian revolution. In our search, we will try to discover the hidden pattern hidden behind these changes to see if this speech is a pragmatic speech for its founder.

keywords: center. margin. Ideological, racial. Identity

تقديم: يمثل الفكر الأوربي خطاب المهيمن أو خطاب ما قبل الكولونيالية، الذي أطلق عليه " إدوارد سعيد" الاستشراق، المنتج لأسطورة المهيمن عليه (المستعمر) السلبية، المعاكسة لأسطورة المهيمن (المستعمر) ليكون مبرراً لأحقية الأنا المركزية التي وضعت نفسها في قمة الهرم لتتحكم بفكر المهيمن عليه، مما يضعف من قدراته تجاه ما يملكه (الخيرات) ليقدمه على طبق للمهيمن، لكن الهامش لن يقف مكتوف اليدين، فسرعان ما يلجأ إلى آلية دفاعية تجاه ما يمارسه المهيمن في حقه، من خلال محاولته تبني رأسمال المهيمن لهدف إعادة ملء صورته النمطية به، بعد إفراغها من كل الأحكام التي اصطنعها له المهيمن، ليتحول المتخلف إلى متحضر، والشرير إلى خير والأدنى إلى أفضل... ويمثل خطاب الحركة الزنجية هذا الهامش، مقابل خطاب المهيمن "الاستشراق"، كما أنه لم يكن هدف خطاب الهامش واحداً، فمن رغبة القضاء على المركز واحتلال مكانه الذي يهدف إليه خطاب "إيمي سيزر" وأتباعه إلى خطاب " قانون" السلمي، الذي يهدف إلى تبني هوية الأنا المركزية وستتغير وجهة هذا الخطاب بسعيه إلى هدف سحق هذه الأنا ليس بدافع عنصري، بل عن طريق الحرب بعد تبنيه لقضية الشعب الجزائري ثم الشعوب الأخرى (الهامش الأبيض)، مما يضيفي على خطابه البعد الإنساني، فما هو سبب تغير هدف الهامش، وما الدافع المستتر وراء البعد الإنساني الموظف كقناع من قبل هذا الخطاب ؟ لكن قبل الإجابة عن هذه التساؤلات لنرى نتيجة خطاب الاستشراق.

1.الكولونيالية: هي عملية بناء مستوطنات في مناطق خارج أوربا أين يصل نفوذ الإمبراطوريات المستعمرة (فرنسا، إنجلترا، الإسبان) لتسويق السلع الفائضة من خلال التأسيس للتجارة، وذلك بوضع نظام إداري وسياسي للتحكم في هذا

المجال، الذي يؤدّي إلى الهيمنة والسيطرة إمّا بالقوة أو بدونها،¹ وتنتج هذه الهيمنة عن القوة المادية والفكرية للمهيمن، مقابل الضعف في المجالات السابقة الذكر للمهيمن عليه، وتشغل الهيمنة حسب "غرامشي" عن طريق خلق أفكار متضاربة في عقل المسيطر عليه كي يتقبّل بالمساواة والاضطهاد كحتمية طبيعية،² علما بأنّ هذا الاعتقاد المرسخ في ذهن المهيمن عليه ذو بعد تاريخي بمعنى أنّه نشأ وترسّخ بمرور الوقت بفضل عملية إعادة إنتاجه في البداية من المهيمن، ليتواطأ المهيمن عليه فيما بعد عندما يعيد إنتاج ما يثبت ذلك الاعتقاد، ممّا يدلّ على أنّه عملية اعتراف غير واعية بهيمنة المهيمن، وتقبّل كلّ ما يأتي منه كحقيقة مطلقة، ممّا يبني ما يسمى بالهيراركية أو التراتبية.

وتتركّز سلطة الكولونيالية على الثنائية الضدية كالأنا/الآخر، الطيب/الشرير، الأبيض/الأسود (الملون)، الفوقي/الدوني.³ تشير إلى أنّ الكولونيالية هي نتيجة لخطاب الاستشراق (خطاب المهيمن) أو تجسيد له، فقبل السيطرة الفعلية كممارسة، يجب معرفة الآخر لتسهيل العملية، ويتميّز خطاب المهيمن كونه ذي طابع إقصائي، فكلّ ما هو مغاير للمهيمن غير معترف به فما الذي يجعل المركز يتخذ هذا الموقف تجاه الآخر ؟ وهل ما يحدث للمهيمن عليه حتمية وقدّر كما يدّعيه المهيمن؟ أم هي استمرارية للصراع الأزليّ بين الغنيّ / الفقير، والخير / الشرير... كسياق دائم لحركة التاريخ ؟

2. الاستشراق أو خطاب ما قبل الكولونيالية: يحتاج المهيمن إلى ما يبرّر ويدعم هيمنته لتأكيد كلّ ما أسند للهامش أو المختلف، فأوجد لنفسه خطابا يحقق مصالحه، يتمثّل هذا الخطاب حسب "إدوارد سعيد" في أيّ قول أو كتابة أو معتقد يتمّ عبره التعرّف على العالم وفهمه، تحوي عبارات محكومة بقواعد منتجة للغة

السلطة الحاملة لمعرفة خاضعة لأننا المركز،⁴ فكّما تعرّفت الأننا المركزية على الآخر، كلّما سهل عليها التحكّم فيه، وتتكوّن تلك المعرفة من مجموعة أفكار ذات تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق (الآخر) والغرب (المركز)، الناتجة عن الرحلات والتبشيرات، ومختلف المعلومات المتعلقة بالأوّل⁵ مع تواطؤ العلوم الأخرى كالأنثروبولوجية وغيرها، أي أنّ المهيمين استغلّ العلوم الأخرى لدعم خطاب سلطته القائم على الثنائيات السابقة ليجعل من تلك المعرفة المنفية للآخر حقيقة يدعّمها الخيال، باقتناعه مثلاً أنّ الآخر المختلف ليس بشراً كونه يأكل لحم البشر، مثلما اعتقده بحضارة الأرتيك، كما أضفى على الشرق صفات الرومانسية، فهو مكان للعشق، وقصص الحب والمغامرات والكانتات الغربية ومصدر الغنى، ومنافسه الثقافي⁶ بفضل الروائيين المشهورين كالروائية أغاتا كريستي في رواياتها التي تجري أحداثها في الشرق، حيث يغامر أبطالها لجني الثروة أثناء بحثهم عن الكنز...

ويورد "إدوارد سعيد" مثلاً عن ذلك في كتاب الإستشراق وهو "وليام شكسبير" الذي يُظهر الشرق مكاناً لإشباع الحواس والشهوات الجنسية، والغياب عن العالم، يتجسّد ذلك في صورة "كليوباترا" كنموذج المرأة الشرقية المغوية مقابل "أوكتافيا" نموذج روما للقوة والذكاء⁷. نرى ممّا سبق أنّ خطاب السلطة لأننا المركزية، يحاول تمرير مجموعة من الأحكام السلبية المكوّنة لهوية الآخر عن طريق استغلال المشاعر الإنسانية (الحب)، فبالرغم من كون قصة أنطونيو وكليوباترا قصة تاريخية معروفة، تستغلها الأننا المركزية ضد الأننا المهمشة لدعم أحكامها وتنشيتها.

فإدوارد سعيد - أحد المساهمين في تدعيم ما يسمى بالنقد الثقافي أو الدّراسات الثقافية من خلال كتبه خاصة كتاب "الاستشراق" أو "نقد ما بعد الكولونيالية" الذي يمثل خطاب الهامش - يتحدّث عن قيام أبناء البلدان المستعمرة سابقا لإعادة النظر في تركة المستعمر، يظهر ذلك في كتبهم الأدبية، وما أتوا به من مجالات نقدية.⁸ معنى ذلك أنّ المهمّش سيحاول إنتاج خطاب مضاد لخطاب المهيمن، لكن هذا لا يمنع من تسترّ أفكار خطاب السلطة بين ثنايا خطاب الهامش، لكونها مرسخة في ذهنه عبر التاريخ. أطلق على هذا الخطاب المضاد خطاب ما بعد الكولونيالية.

3. خطاب ما بعد الكولونيالية: هو خطاب نقدي، نشأ في عدد من مناطق العالم المستعمر سابقا على شكل حركات وتوجهات فكرية وأخرى بحثية، تهدف إلى النهوض بالثقافات المحلية والقومية لتعرية خطاب السلطة للمهيمن من حملته الثقافية والمعرفية⁹ يقوم هذا الخطاب على فكرة كون المستعمر حدّد ماهية المستعمر وفق منظومته الفكرية المحققة لمصالحه، فيعرفه بأنّه غير حدثي، وبربري وغير ديمقراطي... مبرّرا سلوكه نحو الهامش تحت قناع التحضير والتنوير.

ونجد من بين الكتاب الذين حاولوا بناء خطاب الهامش الأنثيلي" فرانز فانون "Fanon-Frantz في كتابه المشهور "معذبو الأرض" المنشور سنة 1961 المتضمّن مقال حول الثقافة الوطنية، الذي أرسى نظرة نقدية صارمة تجاه الأنا المركزية، متعاطفا فيها مع الدول المستعمرة، التي لم يكتف الأوربي بتخريب حاضرها، إنّما سعى كذلك لهدم ماضيها، ولم يكن "فانون" المؤسس الوحيد بل سبقه آخرون وإن كان من منظور آخر (أسطوري - عرقي)¹⁰ بالاعتماد على الحكايات الخرافية المؤسسة لهويّتهم التي تعمل على تفسير وتثبيت بعض عاداتهم، وكذلك

التركيز على لون البشرة، هذا ما سنراه في العنصر الآتي. سنحاول قبل ذلك شرح ما سبق ذكره فيما يتعلق بالجانب الأسطوري بضرب مثال عن سلوك هنود الحمر تجاه الحيوانات بعدم قتلها بعد اقتناعهم بإمداد هذه الأخيرة الإنسان بالمعرفة، مثل الحكاية التي تبين كيف أنّ الحيوانات تعاونت فيما بينها بمساعدة الشجرة لتعليم الإنسان طريقة إشعال النار، فنتج عن ذلك سلوك وتفكير معين تجاه الحيوانات والأشجار التي اندمجت ضمن هويّة الهنود.

4. ظهور الأدب الزنجي: يمثل الأدب الزنجي مثالا عن خطاب الهامش لأنّ هذا الأخير لا يتحدّد في الأسود، بل يتجاوزه ليشمل كلّ من تعرّض للاستعمار، فهويته تدخل فيها كلّ الأجناس المستعمرة، أمّا تركيزنا على الأدب الزنجي، كون "قانون" مثله بعد أن حوّل وجهته، وذلك بمنحه بعدا جديدا وسنعرف كيف قام بتغييرها في العناصر الآتية، لكن قبل ذلك لا بأس من التحدّث قليلا عن كيفية تأسيس خطاب الزنجي (الهامش).

لقد كانت الانطلاقة الرسمية للأدب الزنجي حسب الباحثين بعد ظهور مجلة "باريس" سنة 1932 الناطقة باللغة الفرنسية، ويشرف على هذه المجلة طلبة مارتنيون، لتعود باسم "الطالب الزنجي" في 1943 بسبب الضغوطات السياسية، وتدعو المجلة للعودة إلى الأصول الإفريقية ورفضها لفكرة الإدماج الثقافي، داعية الزنوج في المستعمرات إلى حرية الإبداع، بعيدا عن كلّ تقليد غربي.¹¹ يتّضح لنا أنّ خطاب المهّمّش يسلك نفس استراتيجيات الأنا المركزية التي تدّعي الأفضلية من خلال العودة إلى كلّ ما يجسّد اختلافه عنها معتمدا عليها لمّا يعلن أفضليّته.

ونجد من أبرز مفكري المجلة: الشاعر "إيمي سيزر، ليوبولد سدار"، وكان "سيزر" أوّل من نطق بكلمة الزنجي، الذي عرفها بأنّه اعتراف بسيط بوجود

الزنجي، ورضاء بمصيره، وتاريخه وثقافته¹². كان إذن تصريح " سيزر " أنه طيب وجميل أن يكون الإنسان زنجيا (المتقف) بمثابة صدمة للأنثيلي الذي كان يحلم بالمساواة مع الأوروبي، خاصة بعد ظهور نظرية الإدماج مع الجمهورية الفرنسية الثالثة، مقابل احتقاره للزنجي الإفريقي (الأصل)¹³ يدلّ هذا على أنّ الهامش يريد التغيير من وضعه من خلال إنكاره لهويته الأصلية واستبدالها بهوية المهيمن لاقتناعه المرسخ في ذهنه بأفضلية المركز.

لن يتحقق حلم الهامش في تقمص هوية الأنا المركزية، بعد الحرب العالمية الثانية حيث تُظهر الأنا المركزية عنصريتها تجاهه خاصة أمام ما تعانيه من مشاكل ناتجة عن انهزامها في الحرب، ممّا دفع بالأنثيلي إلى إعادة النظر في موقفه حيال الأوروبي،¹⁴ ما يفسّر تغيير الهامش استراتيجيته، من استراتيجية التقليد لغاية التطابق التام مع الأنا المركزية، إلى استراتيجية إلغاء الأنا المركزية، وجعلها الهامش، وخلق أنا مركزية جديدة مغايرة للأولى، فخطابه (الأدب الزنجي) انبثق عن مجتمعات ما بعد الكولونيالية، المبني على مفهومي العرق والسلالة، كونهما أساس التمييز الاقتصادي والسياسي، فكان كفاحه متأرجحا بين الاحتجاج وصرخات الغضب، والتوفيق والمصالحة، ويعود هذا التذبذب في الإستراتيجية إلى طغيان الطابع الوجداني عليه، سببه مطالبته بوجهة نظر إفريقية، خاصة فيما يتعلق بالعلاقات "الزمانية" والأخلاقيات والغيبيات والجماليات، تميّز نفسها عن القيم الأوروبية،¹⁵ فالهامش إذن قبل أن يكون الأنا المركزية سيحاول بناء هوية مختلفة عن الأنا المركزية الأولى (الأوروبي)، وذلك بالعودة إلى أصله الإفريقي وإن كان بعيدا عنه من حيث الزمان والمكان، كونه اجْتُثّ من أرضه الأصلية وأبعد عن عاداته وتقاليده، ممّا يفسّر غياب الموضوعية عن خطابه.

5. فانون وخطاب الهامش: أعجب "فانون" بخطاب الهامش (الأدب الزنجي)

فكان من المفكرين الأوائل الذين شاركوا في بنائه، والدليل اعترافه بالأهمية التاريخية للحركة الزنجية، لأنها قوة محرّكة للتاريخ، ولقدرتها أيضاً على إعادة الاعتبار للزنجي،¹⁶ فعندما تكون ردّة فعل نابعة من الهامش يلغي أولاً، السلبية والسكون المسندة إليه، ثانياً يبرهن على فاعليته وقدرته على التفكير.

انضمّ "فانون" إلى الحركة فكان انضماماً متميّزاً بالمقارنة مع "سيزر" فبينما يحاول الثاني خلق أنا مركزية جديدة، سيعمل الأول على الانضمام إلى الأنا المركزية والذوبان فيها، كما كان خطابه سلميًّا، فهو ضدّ العنصرية المركزية والعنصرية التي يحاول الهامش خلقها.¹⁷ إنّ اختلاف إستراتيجية خطاب "فانون" يعود إلى طبيعة نشأته، إذ كبر في بيئة مثقفة، فكان والداه موظفين، بالإضافة إلى تأثره بالفكر الأوربي خاصة بعد سفره إلى أوروبا لمواصلة دراسته، فكان ضدّ محاولة بعث حضارة غير معترف بها، كما أنّ هدفه لا يستمدّه من ماضي الشعوب الملونة.¹⁸ يرجع موقفه هذا إلى تأثره بالفكرة الماركسية القائلة بضرورة التخلي عن الأساطير المتصلة بالماضي لتتجج الثورة الاجتماعية.¹⁹ يتبيّن لنا من خلال ما سبق أنّ "فانون" يسعى إلى تغيير الأوضاع المزرية التي يعيشها الزنجي، جاعلاً من الأنا المركزية نموذجاً في البداية.

ولكي نفهم الخطاب الفانوني، سنحاول التعرّض إلى بعض مؤلّفات المظهرة لأسس فكره، وكيف حدث التغيّر فيها، ولنبدأ بكتابه الأول بعنوان "بشرة سوداء وأقنعة بيضاء" الذي يدور حول محورين أساسيين: أولاً، أسباب تطلّع الزنجي للتشبه بالأبيض، ثانياً، محاولة تحليل سلوكه من المنظور النفسي، كما اتّخذ الروائية المارتينيكية "مايوت كابيسيا" Mayotte Capécia نموذجاً للمرأة الزنجية، من

خلال روايتها "أنا مارتينيكية" ليكشف عن عقدة السواد التي تعاني منها، فهي تحاول كغيرها من الزنجيات الزواج من الأبيض، والتشبه بالفتاة البيضاء في طريقة لباسها، وتسريحة الشعر، بالإضافة إلى عملية تبييض البشرة بواسطة الزيوت وغيرها.²⁰ إن سعي الهامش التشبّه بالأنا المركزية، دليل على ترسخ الرموز التي خلقها المهيمن في ذهن المهيمن عليه، التي ستندمج إلى بعضها البعض مشكلة هويته، أو لنقل الصّور النمطية الإيجابية المكوّنة لهويّة الأنا المركزية مقابل الصّور النمطية المكوّنة لهويّة الأنا الهامش.

لا يقتصر ذهن الهامش على احتواء الرموز الممثّلة للأفكار، بل سيرافقها أيضاً الإحساس المناسب لها كون المعاني والمفاهيم والاستجابات للرمز الذي نتعلّمه، يرافقه شعور ما،²¹ هذا هو حال الزنجي فكلمة الزنجي تشعره بالخلل والاشمئزاز من بشرته القاتمة، وشعره المجعد، لذلك يحاول دائماً التخلص من الصورة النمطية التي سُجن فيها بقيمتها السلبية (الحيوانية، التوحّش القبح...)²².

إنّ المهمّش لا يقضي على كلّ القيم المسندة إليه، إنّهُ سيحوّل بعضاً منها لتكون من مكوّنات خطابه فنجدّه يعوّض ضعفه الاقتصادي بالقوّة الجنسية²³ التي أسندها له الأبيض ظناً منه أنّ ذلك يثبت وجوده أمام الأنا المركزية، وهو من دون وعي منه يعمل على إعادة نفس معادلة الهيمنة المركبة من مهيمن / ومهيمن عليه المنتجة لهيمنة الأنا المركزية بخطابها، وحسب "الميلي" عوض أن يفسّر "فانون" تصرفات الزنجي (المهمّش) عن طريق اللّبيدو كما هو عند العالم النفسي فرويد، نجدّه يعوّض عن مفهوم اللّبيدو بمفهوم الاسترقاق،²⁴ معناه أنّه لا يفسّر وضع الزنجي بالجانب الدّاتي للإنسان كما يفعله فرويد ممّا يدخله في المشروع الغربي

المعظمٌ للأنا المركزية، بل يعتمد إلى العامل الاجتماعي (الاسترقاق) الذي سببه الأبيض، ممّا يُظهر تأثر فانون بالماركسية.

بناءً لتفسير " فانون " لنفسية المهمّش، يسعى إلى إنتاج خطاب سلمي عوض خطاب " إ. سيزر " الذي يغلب عليه العنف، لذلك غلب على كتابه الطابع التحرري، لا فكرة العنف الذي سيتحقّق عن طريق تجاوز الاستغلال الذي تمارسه الأنا المركزية من خلال نفي صفة الإنسانية عنه، كونه لا يعترف به كإنسان إنّما يطلب فقط عمله، ممّا يوضّح تأثر "فانون" "بهيجل" (Hegel) من خلال تطبيقه لجدلانية السيد والعبد، ليحصل هذا الأخير على حرّيته بفضل الأوّل الذي يمنحها له، الذي لن يعرف طريقة استخدامها بسبب ترسخ العبودية في نفسه،²⁵ لكن يختلف عبد "فانون" عن عبد "هيجل"، فبينما نجده عند الثاني يساوي سيّده، لأنّه يتّخذ من عمله وسيلة لعدم مواجهته نجده عند الأوّل يترك عمله للمواجهة، وليتمّ ذلك على الزنجي أن يعي بالحقائق الاقتصادية²⁶ ليتمكّن من تغيير وضعه، وذلك بتنظيم حياته وتثقفه، والتخلّص من كلّ ما هو بدائي ليحقّق المساواة مع الآخر.²⁷ ما يبرّر كون خطاب "فانون" كما سبق الذّكر خطاب الهامش ذي إستراتيجية سلمية ذات خطوتين مهمّتين هما: أولاً، التشبّه. ثانياً، تحقيق الاندماج التام مع المركز.

صحيح أنّ خطاب " فانون " ذو طابع إنساني لكنّه يهمل زاوية القومية والوطنية مع تركيزه على الجانب الطبقي، الذي يمكن تغييره باتّحاد العامل المارتنيكي مع العامل الفرنسي ضدّ البرجوازي الفرنسي والمارتنيكي.²⁸ يدلّ هذا على أنّ الهامش يحاول التحوّل من الآخر إلى الأنا المركزية بالاندماج بالأنا المركزية الأصلية من خلال اكتساب كلّ قيمها، ومحو الهامش واختلافاته فخطاب الهامش هنا لا يسعى إلى قلب معادلة: الأنا المركزية المهيمنة / الهامش (المهيمن

عليه) إلى الهامش (المهيمن)/الأنا المركزية (المهيمن عليه) كما يريد فعله الشاعر الأنيتلي "إمي سيزر"، لأنّ "قانون" لا يريد الزنجي أن يثور ضدّ الأبيض، بل يركّز على العنصرية في كلا الجانبين للقضاء عليها²⁹ ممّا يدلّ على مثالية الخطاب القانوني؛ لأنّه يستحيل تحقّق ذلك ما دام كلّ من المهيمن والمهيمن عليه نشأ على أفكار (الأفضلية، والعظمة والذكاء، والتحضّر، والسيادة)/(الدّنس، والتخلف، والتوحش، والخدمة).

7. التحوّل في الخطاب القانوني: تنتفي صفة المطلق على الأفكار، كونها تتميز بالتغيّر والتحوّل، ما حدث " لمعرفة خطاب " قانون " بسبب احتكاكه بالثورة الجزائرية، فالهامش يسلك إستراتيجية جديدة ضدّ المركز إذ لم يعد يريد الاندماج في الأنا المركزية بل سيعمل هذه المرّة على محاربتها، لا لاحتلال مكانها وتحويلها إلى الهامش كما أراده "سيزر" بل للقضاء عليها نهائياً ممّا يفسّر انتقاله من "الأنا الزنجي" الذي يمثّله كتابه " بشرة سوداء وأفنعة بيضاء " إلى "النحن الجزائري" الذي يعبر عن الانتماء الوجداني لشعب يقاسمه محنه.³⁰

لقد ساعدت الممارسة الميدانية في تغيّر أفكار خطاب "قانون"، يظهر ذلك في كتابه " الثورة الجزائرية في عامها الخامس " الذي هو مجموعة من مقالات كتبها في جريدة " المجاهد " ابتداء من سنة 1957 إلى 1959 التي تصدر باللغتين الفرنسية والعربية، تدور حول: الاستعمار في الجزائر وردود فعل اليسار الفرنسي (الحزب الشيوعي)، ومواقف حزب جبهة التحرير وأخيراً أحداث إفريقيا، تتضمّن المقالات أيضاً، وصفا لظواهر سياسية واجتماعية داخل النظام الاستعماري.³¹ بالرغم من هذا التغيّر المهمّ، كونه يضيف الطابع الإنساني على الخطاب لكن ألا يمكن القول من أنّ شعور " قانون " بالانتماء للشعب الجزائري -

بعد احتكاكه به لما عيّن مديراً في مستشفى الأمراض العقلية بالبليدة - دليل على ترسخ الشعور بالدونية في نفسه، خاصة وأنه بالرغم من شهاداته لم تعترف به الأنا المركزية؟ مما يؤكد أنّ الاستعدادات (habitus) لا تتغير حتى وإن تغير مركبها المعرفي علماً من أنها تتكوّن من المركبات التالية:

* الأولى وجدانية كلّ الاستعدادات تحمل شحنة عاطفية سلبية أو ايجابية تجاه الأشياء.

* الثانية معرفية مرتبطة بكلّ الأفكار والمعتقدات تجاه الموضوع في الواقع الاجتماعي.

* الثالثة تمثل الدافع وراء السلوك، الحافز أو المقصد³².

فالشعب الجزائري انطلاقاً من لونه هو انعكاس للأنا المركزية، وإن اختلفت عنها في موقفها من الهامش (الزنجي)، لأنها اعترفت به وقبلت بإمكاناته الفكرية عكس الأنا المركزية الأصلية (الأوربي)، فالهامش هنا استطاع الاندماج داخل الأنا المركزية المزيفة والدليل تبنيّه لقضيتها، ومحاولته الدفاع عنها، ممّا ينفي قول "الميلي" من أنّ عقدة السواد اندثرت بعد تبنيّه للقضية الجزائرية،³³ مبرّراً موقف "فانون" كونه موقفاً هيومانيزي (humaniste) غربي يمجّد الإنسان.³⁴ نفهم من القول نقطتين أولاً، أنّ الهامش يسند الإنسانية للأنا المركزية، ثانياً، إنّها غير موجودة لدى الآخر بل يكتسبها، ممّا يدلّ على التبجيل التام للأنا المركزية.

لقد تبني "فانون" قضية الهامش (الشعب الجزائري) كي يصنع منها أنا مركزية، ولتحقيق ذلك لجأ إلى بناء خطاب لها، أولاً بإقناعه بالتمسك بكلّ قيمه، وطرح كلّ ما تحاول الأنا المركزية إسناده للهامش، يظهر ذلك في كتاب "من أجل ثورة إفريقية" الذي يحوي على ملاحظات عن التقاليد الجزائرية، مشيراً كيف أنّ

الأنا المركزية (فرنسا) تحاول تمزيق القيم المكوّنة للشخصية المعنوية للجزائريين، من خلال سياستها الذّكية الهادفة إلى استمالة المرأة الجزائرية ودفعها للتّصرف كأوروبية³⁵.

يتبيّن لنا ذكاء "قانون" كونه يعرف بالتّحديد إستراتيجية الأنا المركزية الأوروبية، وإفشالها يعمل على التحدّث عن هذا الأساس في كتابه "الثورة الجزائرية في عامها الخامس" بأنّ المعلّمت والأخوات المسيحيات، يضاعفن جهدهنّ بالتّدخل في تكوين الفتاة الجزائرية، بتمجيد ذكائها ونقد طريقة معاملتها وكذا استغلال الفقر والجوع والجهل للتسرّب داخل العائلة الجزائرية، فخلف كلّ كمّية سميد يتبعها استنكار للحجاب³⁶.

لم يعد خطاب "قانون" يحمل إستراتيجية السّلم والإنسانية، لتحلّ محلّها إستراتيجية العنف الذي هو بالمفهوم الفلسفي والثوري وسيلة من وسائل التحرّر والتغيّر، ويكون بعدّة مظاهر، كالغضب إزاء وضع اجتماعي معيّن، أو بتنظيم مقاومة بالكفاح العلني، كما أنّه انفجار إنساني، يحدث عندما يُحرم الفرد من ممارسة حقوقه³⁷، فعمل "قانون" في خطابه على خلق الأوّل (خطاب إنساني) لينتج عنه الثاني (خطاب العنف)، كما عمل على ذكر نقاط ضعف الأنا المركزية من خلال تحليله لمشاريعها الاقتصادية، والتجارية بالقارة الإفريقية ذكرا سبب اهتمامها بالسوق الإفريقية في مقال "الجزائر في واجهة الاستعمار الأوروبي الحديث" المنشور في جريدة الشعب سنة 1958³⁸، كما يمنح طرق مواجهة الأنا المركزية كتأميم قطاعي التجارة والإنتاج، والعمل على انتهاج الإدارة المركزية، والمشاركة الجماهيرية في المشروعات التعاونية³⁹. كما كتب في مقالاته بعنوان "الديمقراطيون الفرنسيون" الصادرة في 1959، أنّه يتوجّب على المثقّفين

الجزائريين التفرغ للعمل الفكري، والتجربة الجزائرية، مبيّنا خيبة آماله في اليسار الفرنسي ومفاهيمها الوهمية، وأنّه لا فائدة في العمليات الفردية، التي تعمل في صفوف جبهة التحرير وأنّ سبب دعوة هؤلاء بوقف الحرب كونها مكلفة، وليس رافعةً بالشعب الجزائري.⁴⁰

يظهر جليا الموقف السلبي " لفانون " تجاه الأنا المركزية بسبب عدم اعترافها به، ورغبته في بناء أنا مركزية جديدة تمثّل انعكاسا للأنا الأصلية، من خلال رغبته حسب المفكر "دافيد كوت" في تحطيم ثقافتها بإفريقيا، كذلك تحويله للبناءات الأوروبية في إفريقيا إلى وحدات طبيعية تمثّل النقد الإفريقي،⁴¹ ويعبّر "فانون" عن القطيعة النهائية بالأنا المركزية في مقاله في جريدة الشعب من أنّه لا وجود لذاتية جديدة متولّدة من الاستعمار، وعن كون هذا الأخير حادثة مؤسفة أخرت تطوّر الشعب الجزائري، مسقطا بذلك إدّعاءات فرنسا بأنّه هناك أمة بصدد التكوين.⁴²

وفي الأخير نقول رغم حصول "فانون" على اعتراف الأنا المركزية غير الحقيقية، يبقى اعترافا غير رسمي، ف وراء الطابع الهيومانيّ لخطابه المدافع عن الشعوب المهمّشة، تنتسّر الرغبة في التحول إلى أنا مركزية لتوظّف هي الأخرى نفس الطّرق الموظّفة من طرف الأنا المركزية كنفي الآخر الذي لا يتحدّد فقط في فرنسا، ممّا يؤكّد أنّه لا يمكن القضاء على المعادلة مهمين/مهيمن عليه، وإنّ تغيّرت أقطابه.

الهوامش:

¹ - ينظر: إدوارد سعيد، كتابة التاريخ، ترجمة: أحمد خريسي، ناصر أبو الهجاء الطبعة الأولى، أزمة للنشر، الأردن، 2007، ص 16.

² - المرجع نفسه، ص 37.

- ³ -المرجع نفسه، ص 16.
- ⁴ -المرجع نفسه، ص 13.
- ⁵ -ينظر: ادوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة: محمد عناني، الطبعة الأولى، رؤية للنشر والتوزيع، مصر، 2006، ص 43.
- ⁶ -المرجع نفسه، ص 42-43.
- ⁷ -ينظر: ادوارد سعيد، كتابة التاريخ، ص 45.
- ⁸ -ينظر: إدوارد سعيد، الاستشراق، ص 29.
- ⁹ -ينظر: ميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، الطبعة الثالثة، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2002، ص 160.
- ¹⁰ -المرجع نفسه، ص 159-160.
- ¹¹ -ينظر: لليان كستلوت، كُتَاب اللُّغَة الفرنسيَّة السُّود، معهد العلوم الاجتماعيَّة بروكسل، 1961، ص 91. نقلاً عن: عثمان محمود مفهوم العنف في فكر فانون وعلاقته بالثورة الجزائرية، بحث نيل شهادة دبلوم الدراسات المعمّقة جامعة (معهد الفلسفة)، جامعة الجزائر 1987-1988، ص 6.
- ¹² -المرجع نفسه، ص 159-160.
- ¹³ -ينظر: محمد الملي، فرانز فانون والثورة الجزائرية، (S.N.E.D) الجزائر 1973، ص 10.
- ¹⁴ -المرجع نفسه، ص 16.
- ¹⁵ -ينظر: خالد سليمان، في أدب ونقد ما بعد الكولونيالية، مجلّة "علامات" الناقد الثقافي الأدبي، ج 54، عدد ديسمبر، جدّة، 2004، ص 110-111.
- ¹⁶ -ينظر: عثمان محمود، مفهوم العنف في فكر فرانز فانون وعلاقته بالثورة الجزائرية، ص 9-10.
- ¹⁷ -ينظر: دافيد كوت، فرانز فانون، ترجمة: عدنان الكيالي، الطبعة الأولى، دار غندور، بيروت، 1969، ص 33-37.
- ¹⁸ -ينظر: محمد الملي، فرانز فانون والثورة الجزائرية، ص 64.
- ¹⁹ -ينظر: دافيد كوت، فرانز فانون، ص 22.
- ²⁰ -المرجع نفسه، ص 10-11.
- ²¹ -ينظر: جان بودريار، المصطنع والاصطناع، ترجمة: جوزيف عبد الله مراجعة: سعود المولى، الطبعة الأولى، المنظمة العربية للترجمة، لبنان 2008، ص 27.

²²-Voir : Frantz fanon, peau noire masques blancs, présenté par : Mohammed lakhdar maougal, E.N.A.G édition, Algérie, 1993, p 114.

²³-ينظر: محمود عوده، أساليب الاتصال والتغير الاجتماعي، تقديم: محمد خيرى، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1998 ص 8-18.

²⁴-محمد الميلي، فرانز فانون والثورة الجزائرية، ص74.

²⁵-ينظر: عثمان محمود، مفهوم العنف في فكر فرانز فانون، ص9-ص11.

²⁶-ينظر: المرجع نفسه، ص 74.

²⁷-Voir :Frantz fanon, peau noire et masques blancs, p 24.

²⁸-ينظر: محمد الميلي، فرانز فانون والثورة الجزائرية، ص63.

²⁹-ينظر: عثمان محمود، مفهوم العنف في فكر فرانز فانون، ص14.

³⁰-المرجع نفسه، ص63.

³¹-المرجع نفسه، ص14.

³²-Voir : Gustave Nicholas Ficher, la psychologie sociale, édition le Seuil, Paris, 1997, p61.

³³- محمد الميلي، فرانز فانون والثورة الجزائرية، ص63.

³⁴-المرجع نفسه، ص68 - ص70.

³⁵-المرجع نفسه، ص105.

³⁶-المرجع نفسه، ص 127.

³⁷-ينظر: عثمان محمود، مفهوم العنف في فكر فرانز فانون وعلاقته بالثورة الجزائرية، ص20.

³⁸-ينظر: محمد الميلي، فرانز فانون والثورة الجزائرية، ص193.

³⁹-ينظر: عثمان محمود، مفهوم العنف في فكر فرانز فانون وعلاقته بالثورة الجزائرية، ص21.

⁴⁰-ينظر: محمد الميلي، فرانز فانون والثورة الجزائرية، ص193.

⁴¹-ينظر: دافيد كوت، فرانز فانون، ص134-139.

⁴²-ينظر: محمد الميلي، فرانز فانون والثورة الجزائرية، ص81-83.